

مِرْكَزَاتُ الْوَحْدَةِ التَّقَافِيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي فَكْرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْغَزَالِيِّ

إعداد إبراهيم نويري*

تمهيد:

يُحاول هذا البحث الوقوف على آراء الشيخ الغزالى حول الجوانب الثقافية ووظائفها في الحضارة الإسلامية لتأسيس وصياغة مشروع الوحدة العامة والشاملة بين المسلمين وتحليلها، باعتبار أن الجهد الثقافي والفكري يمثل أساس عملية التغيير الاجتماعي، إذ أن إعداد أي مجتمع أو أمة لحمل رسالة حضارية معينة يتضمن أن يشمل في البدء إحداث التغيير والتجديد الضروريين في منظومة التصورات الثقافية والفكرية؛ وبهذا المعنى تحول الثقافة إلى صياغة منهجية لأسس ومقومات بناء الأمة.

من هنا فإننا لن نكون مضطرين لأن نعود لتفصي الاشتراكات والمفردات اللغوية لكلمة ثقافة، أو لأن نخرج على مراحل تطور هذه الكلمة، أو الوقوف عند التعريفات المختلفة التي وردت بشأنها، ومعنى ذلك أنها نروم المعنى العام للثقافة، ذلك المعنى الدال على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعاً توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة.¹ ولا شك أن المخصصات العامة التي تتنظم إطاراً واحداً يكون علامته على نوع معين من التفكير وأسلوب خاص في الحياة، ملحوظة في معظم الثقافات العربية والحضارات الكبرى كما هو شائع ومنظور.

* ماجستير دعوة وإعلام من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة (دمشق: دار الفكر، 1984م)، ص. 77.

وبداهةً فإن الثقافة الإسلامية هي واحدة من تلك الثقافات العربية التي تفاعلت مع الأطر والمرجعيات الحضارية لثقافات مختلفة، بما تضمنته من قيم روحية وإنسانية مؤثرة وحساسة، وبما اتصف به من خصائص وسمات متميزة أهّلتها لأداء دورها الفاعل في صياغة المنجزات الحضارية المشتركة للإنسانية، فكانت بهذه المواقف والقسمات الجامحة ثقافة خصبة وحيوية من جهة عمق قدراتها ومؤهلاتها الذاتية في صناعة الإنسان النموذج المskون بروح المبادرة والفعل الحضاري، وبناء الأمم والجماعات والشعوب المؤهلة لنفع الإنسانية وبعث الحضارة الراشدة.. ومن باب أولى فإن العناصر والأبعاد المكونة لهذه الثقافة تشكل لحمة وسدى الوحدة بين المسلمين والصياغة الصلبة للكيان الحضاري الإسلامي.

أولاً: مرجعية وحدة التصور بين المسلمين عند الغزالي:

إن المقومات الثقافية لأية أمة ينبغي أن تستند في وجودها إلى مرجعية ضابطة ومهيمنة تحكم في الحراك الذهني الفردي والجمعي، وتحدد الأطر العامة للتصورات الفكرية التي تبع منها المفاهيم والسلوكيات والآراء والآراء، وفي نظر الشيخ محمد الغزالي فإن هذه المرجعية بالنسبة للأمة الإسلامية تمثل فيما يأتي :

أ - القرآن الكريم:

يؤمن الشيخ الغزالي - ككل المسلمين - بأن القرآن الكريم هو المتبع الأول للتلقي والاستمداد عند المسلمين، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو الشريعة أو الأخلاق أو المعاملات أو نحو ذلك، غير أنه يجعل من القرآن إطاراً عاماً يهيمن على كل شيء، ومعياراً ثابتاً يحاكم إلى قواعده ومقاييسه كل الأفعال والظواهر والمعارف والمواريث؛ وتعليق الغزالي هنا ليس تعليلاً عقلياً محضاً، بل هو مستنبط من الدلالة العامة لمعنى أو مفهوم الدين الذي بعث لإنفاذـه كل الأنبياء والرسل، فإن الوحي الإلهي في المسيرة الزمنية التي قطعها "قد انتهى إلى هذا الكتاب وأن ما بين دفتيه كلمة السماء إلى الأرض دون تحريف، وأن مراد الله من خلقـه قد خـلـدـ في هذه الصحفـات فلا تعـقـيبـ لأـحـدـ بـعـدـهـ". وهذه الصفـاتـ لا يمكنـ الـبـةـ إـضـفـاؤـهـاـ عـلـىـ كـتـابـ آخرـ...ـ إنـ العـالـمـ كـلـهـ لاـ يـحـويـ فـيـ جـنـيـاتـهـ الآـنـ إـلـاـ خـطـابـاـ وـاحـدـاـ مـنـ اللهـ لـعـبـادـهـ،ـ هـذـاـ الخـطـابـ هـوـ الـكـلـمـ الـمـسـطـورـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ...ـ وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ قـدـ

تضمن جملة الحقائق التي تناولها موسى وعيسى عليهما السلام، وتتناول بها من قبلهم نوح وإبراهيم عليهمما السلام... فلو أن أحدهم **بعثَ الآن حيًّا** لرأى ملامح رسالته مصقولة في مرآة هذا الوحي الخاتم، ولكن أول من يحتفي بها ويدعو لاعتباها² فالقرآن الكريم - في نظر الشيخ الغزالي - أساس حضارة إنسانية راشدة، ومبعد ثورة نفسية وعقلية شاملة نقلت تاريخ العالم كله من وضع إلى وضع ومن طور إلى طور؛ فالنهضة التي اقترنت بالقرآن الكريم وجدت أسباب الحياة والابتعاث والازدهار في المناخ الذي نسجته تعاليمه ووصايته وهدایاته. ويمكن التأكيد بأن هذا الكتاب منح الوجود الإسلامي الأول أثناء فترة ميلاد الكيان الإسلامي من عناصر القوة والتتحدي والتماسك الذاتي ما تعجز عن صنعه ألف وزارة للدعـاة بـعـد آلـاف الأـقـلام الـواعـية والأـلسـنة الـحادـة لـاستـارة العـواطف وـتنـضـيـجـ الـآراء وـصـقـلـ الـعـزـائمـ؛ إنـ القرـآنـ الـكـرـيمـ كانـ بـالـنـسـبـةـ لـلـحـرـكـةـ الـإـسـلـامـيـةـ الأولىـ يـمـثـلـ صـحـافـهـ وـإـذـاعـهـ وـكتـابـهـ وـخطـبـهـ، وـمـنـ هـدـيـاتـهـ الـعـامـةـ وـحـدـهـ اـهـتـرـتـ الأـجيـالـ الـهـامـدـةـ اـهـتـرـازـ الـحـيـاةـ، وـاسـطـاعـتـ فـيـ وـقـتـ قـصـيرـ أـنـ تـخـلـصـ مـنـ أـوهـامـ الـجـاهـلـيـةـ الأولىـ، وـمـاـ كـانـ ذـلـكـ لـيـحـدـثـ بـمـثـلـ تـلـكـ الـمـواصـفـاتـ الـعـجـيـبةـ لـوـلـ قـوـةـ الـقـرـآنـ وـشـدـةـ سـلـطـانـهـ عـلـىـ النـفـوسـ وـالـعـقـولـ وـالـأـقـدـدـةـ؛³ مـنـ هـنـاـ رـأـيـاـ الشـيـخـ الـغـزـالـيـ يـتـجـهـ بـهـذـهـ الـمـسـأـلـةـ اـبـحـاـثـاـ تـأـصـيـلـيـاـ فـيـ جـعـلـ مـنـ آـيـاتـ الـقـرـآنـ إـطـارـاـ مـنـهـجـيـاـ ضـابـطـاـ لـغـيـرـهـ مـنـ الـأـطـرـ وـحـاـكـمـاـ عـلـىـ مـوـضـعـاتـهـ وـمـضـامـينـهـ وـمـنـاهـجـهـ، وـلـعـلـ ذـلـكـ مـاـ يـفـسـرـ شـدـةـ تـعـلـقـ وـاـهـتـمـامـ الشـيـخـ الـغـزـالـيـ بـالـدـرـاسـاتـ الـقـرـآـئـيـةـ.*

ب - السنة النبوية المطهرة:

يعتقد الشيخ الغزالي أن السنة النبوية الشريفة هي المرجعية التي تلي القرآن من حيث الأهمية وضبط تصورات ومفاهيم العقل المسلم وتأسيس النهجية الإسلامية، ومن ثم فإن ما صر عن رسول الله ﷺ لزم قبوله والاستدلال به على الأحكام كما هو شأن بالنسبة للقرآن الكريم؛ ويرى الشيخ الغزالي أن الأحكام المتضمنة في الأحاديث الصحيحة إنما هي

² محمد الغزالي، هذا ديننا (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط2، 1385هـ/1965م)، ص195.

³ محمد الغزالي، نظرات في القرآن (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، 1986م)، ص14-16.

* للشيخ عدة مؤلفات وجهود تتعلق بالقرآن وعلومه ودراساته، وهي: نظرات في القرآن الكريم، والمحاور الخمسة في القرآن، وكيف تعامل مع القرآن، ونحو تفسير موضوعي، فضلاً عن المحاضرات العديدة والدورات المختلفة التي قدمها حول هذا الموضوع، والمقالات والمحاضرات المتعلقة بهذا الشأن والتي أودعها بعض مؤلفاته الأخرى.

مأخوذة أو مستنبطة من القرآن نفسه... أي أن النبي ﷺ هو الذي استتبطها بتأييد إلهي، وهذا الفهم أولاً الاستنباط يسمى في الاصطلاح القرآني "تبينًا" أو "إراعة" دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَزَنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ (النحل:44)، وقوله: ﴿إِنَّا أَنَزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِفِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:105)؛ فالسنة المطهرة في فهم الشيخ الغزالى مستنبطة من روح القرآن الكريم الذي ثوى في سويداء قلب النبي ﷺ، غير أن هذا التشخيص لا ينطبق على عموم السنة، وإنما على الجانب الذي لا يُعدّ وحياً مباشراً من الله تعالى. فقد كان القرآن الكريم هو الدعامة الأولى والمعيار المهيمن في حياة وواقع النبي ﷺ "استقرت آياته في سويداء قلبه، وامتدت معانيها وغاياتها في مشاعره وأفكاره، واستثار بأشعة الوحي باطنها كله، ففيها أن يصدر عنه إلا ما يوافق القرآن ويسعى بين يدي هدایاته المقررة؛ وحديث الرسول ﷺ إلى الناس فيما يتصل بشؤون دينهم إذا لم يكن وحياً مباشراً من الله، فهو مولد من حقائق القرآن التي أوحيت إليه، واحتللت بفؤاده وعقله، والتي ينبعث عنها ويوجه غيره إليها، ومن السذاجة تصور النبوة ترديداً مجرداً لأخبار الملائكة، أو تصور الرسول ﷺ شخصاً لا يتكلم ولا يحكم ولا يفتي ولا ينصح إلا إذا همس في آذانه الملك بما يقول وبما يفعل... إن الرسالة أجمل من ذلك وأخططر. والرسول ﷺ بعد أن أفعمت أقطار نفسه بهذا القرآن العظيم وشربت روحه ما أودع فيه من هدي وخير أصبح - من ذاته - ينطق بالحكمة ويفسر القرآن، يفسره بألفوف من الأقوال والأعمال والتقريرات والإجابات التي نشأت عنه ونمّت في حرارته وسننه".⁴

ونفهم من ذلك أن الشيخ الغزالى - وإن أبدع في التفريق بين السنة حين تكون وحشاً مباشراً من الله تعالى وبين تكون نضحاً قرآنياً - مع ما أجمع عليه الأمة من عدّ السنة المرجعية الثانية في معيار النظر الإسلامي والمنهجية الإسلامية، فقد كتب تحت عنوان: السنة حق يقول: "وال المسلمين متافقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتاً ودلالة تفاوتاً لا محل هنا لذكره، وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها في مظانها من شاء (...) وتكتنib السنة على طول الخط احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطأ، فإن الله

⁴ محمد الغزالى، هذا ديننا، مرجع سابق، ص198.

عَزْ وَجْلَ تَرْكِ لِرَسُولِهِ السَّنَنِ الْعَمَلِيَّةِ يَبْيَنُهَا وَيُوضَّحُهَا، وَقَدْ ثَبَّتَ هَذِهِ بِالْتَّوَاتِرِ الَّذِي ثَبَّتَ بِهِ الْقُرْآنُ فَكَيْفَ تَجْعَدُ؟ بَلْ كَيْفَ تَجْعَدُ وَحْدَهَا وَيَعْتَزِفُ بِالْقُرْآنِ؟ وَكَيْفَ نَصْلِي وَنَصُومُ وَنَحْجُ وَنَزْكِي وَنَقِيمُ الْمَحْدُودَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَا أَدْرَكَتْ تَفَاصِيلِهَا إِلَّا مِنَ السَّنَنِ؟ إِنْ إِنْكَارَ الْمَتَوَاتِرِ مِنَ السَّنَنِ الْعَمَلِيَّةِ خَرُوجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ⁵ وَمِنْ هَنَا اهْتَمَّ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ بِالسَّنَنِ⁶ هَذِهِ الْدَّرْجَةُ الَّتِي تَضَعُهَا ضَمِّنَ سَيَّاقِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُوْجَهَةِ لِلنَّظَرِ الْمَهْجُوِيِّ وَصِيَاغَةِ الْمَقَائِيسِ الْحَاكِمَةِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالْأَفْكَارِ وَالْوَقَاعِ وَالظَّواهِرِ.

جـ - الاجتهاد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلامي:

يرى الشيخ الغزالى أن الاجتهاد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلامي - كما يسميه - هو ضرورة طبيعية لا بد من وجودها، لأن هذا الإطار يمثل حلقة التفاعل بين العقل والنقل وتنزيل الأحكام والمعايير النقلية على الواقع والأفعال والمستجدات، فأثر الفهم والتقدير الفكري والعقلي ملحوظ في كل هذه المراحل من أقسام هذه المعادلة، ومن جهة أخرى فإن هذه الحركة المستديمة في الفكر الإسلامي القائمة على آلية القياس والموازنة بين الأشباه والنظائر ورد ما لا نعلم إلى ما نعلم... تضحي وفقاً لهذا التحديد ضمانة منهجية وواقعية لخلود الشريعة الإسلامية وشمولية وعالمية المذهبية الإسلامية؛⁷ وفي نظر الشيخ الغزالى فإن الاجتهاد بما يتضمنه من سمات اليسر والتسامح والحركة والتفاعل مع المبدأ والولاء للمنهج يمكن أن يشكل مساحة مهمة وفاعلة من المرجعية الإسلامية، وتعليل ذلك عنده أن الاجتهاد "كما يعبر عن حيوية

⁵ محمد الغزالى، ليس من الإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٦، 1411هـ/1991م)، ص38-39.
⁶ لا يعدّ الشيخ الغزالى من علماء الحديث بالمعنى الفنى أو الاصطلاхи، لكن لكتوبه مفكراً وداعيةً وعالماً إسلامياً، فهو من أكثر المحتقين بهذا المجال، وله الكثير من الآراء والكتابات حول السنة ومناهجها، منها كتابه: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، وفي فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، وخلق المسلم، ومن كنوز السنة، فضلاً عن العديد من المقالات المنشورة في بعض كتبه، منها خاصة: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، وهو موم داعية، وليس من الإسلام، ومستقبل الإسلام خارج أرضه، ودستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، وفقه السيرة، وكيف نفهم الإسلام.

⁷ المقصود بالذهبية الإسلامية هنا "مراجعة" الإسلام، أي رؤيته الكلية للإنسان والكون والحياة والخلق العظيم (سبب الوجود) .. وهي أيضاً منطق الإسلام ومنهجه العام المستمد من أصوله وقواعده ومنظمه المصوّرة. وللوقوف على شرح مسهب لهذا المصطلح يمكن مراجعة كتاب الدكتور محسن عبد الحميد: الذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، وهو الكتاب السادس من سلسلة كتاب مجلة الأمة القطرية.

المسلم بإزاء الإسلام والحياة معاً، أو كما يعبر عن طاقة الملاعنة التي يحملها المسلم ليوفق دوماً بين الحياة التي يعيشها الآن وبعد الآن، وبين الإسلام الذي يؤمن به ... يعبر من جانب آخر عن روح اليسر وروح الحرية في التفكير، وإن كانت حرية محدودة، فمبدأ الاجتهاد الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي الأصيل، مبدأ بناء ومبدأ حركة ومبدأ حرية وبالتالي مبدأ تيسير، وفي الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح".⁸

ويظهر أن الشيخ الغزالى وفقاً لهذه التشخيص يعترف بكون حجية الاجتهاد، إنما هي متضمنة في طبيعة العلاقة بين طرقى معادلة التكامل والتفاعل بين العقل والنقل، وأنه بهذا التأويل والتوجّه ينحو منحى الشيخ الفقيه محمود شلتوت الذى يؤكّد كون حجية الرأى في التشريع أو التقييم ثابتة بالأدلة النقلية ذاتها لأنها تعود إلى عدة أمور منها: 1 - تقرير القرآن لمبدأ الشورى، 2 - وأمر القرآن برد المتنازع فيه إلى أولى الأمر؛ وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة القدرة على الاستبatement، 3 - ثم ثبوت إقرار النبي ﷺ لأصحابه الذين كان يعنفهم إلى الأقاليم والجهات النائية على الاجتهاد وإعمال العقل والأخذ بالرأى.⁹

وبهذا الفهم يصبح الاجتهاد مساحة إضافية مرنّة تسهم في توسيع القسمات المشتركة لوحدة الفكر والتصور عند المسلمين لأن هذه الأداة مشدودة في حركتها إلى فلك نصوص الوحي والأدلة المعصومة، إذ يرى الشيخ الغزالى أن "الرجل الذي يعيش في حرب الوحي، خيراً بحكمته وأحكامه، متأناً في تلاوته وتدبّره، بصيراً بسياقاته ومعازيه، والذي يصبح رسول الله ﷺ في سيرته ويستبطن سنته من أقوال وأفعال، ويتأسى به في تقواه وعبادته وخلقـه، هذا الرجل - ما دام يملك ذلـكم القلب النـقـي والبـصـر القـوي - يستطيع أن يصرف أحـوالـالـحـيـاـتـيـةـ الـتـلـقـاهـ تـصـرـيفـاً يـطـبعـهاـ بـطـاعـهـ الـدـيـنـ، وـيـضـفيـ عـلـيـهـ صـبـغـةـ الـحـقـ، لأنـهـ سـيـجـتـهـ فيـ إـلـحـاقـهـ بماـ عـلـمـ منـ كـتـابـ اللهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـهـ، وـفـيـ رـدـهـ إـلـىـ ماـ وـعـىـ مـنـ بـوـاعـثـ إـلـاسـلـامـ وـأـهـدـافـهـ.. وـالـسـيـرـ فيـ الـحـيـاـتـ بـهـذـهـ الـنـيـةـ... وـالـأـمـةـ مـطـالـبـةـ بـالـتـزـامـ هـذـاـ الـصـرـاطـ فيماـ تـفـدـ بـهـ الـعـصـورـ مـنـ أـحـدـاثـ".¹⁰

هـذـاـ هوـ الإـطـارـ الـمـرـجـعـيـ الضـابـطـ لـنـهـجـيـةـ الـفـكـرـ وـالـتـصـورـ عـنـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ مـنـظـورـ الشـيـخـ الغـزاـلـيـ، وـيـكـنـ الـإـسـتـدـلـالـ عـلـىـ مـشـرـوعـيـةـ هـذـاـ إـلـاطـارـ الـنـهـجـيـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿يـأـيـهـاـ الـذـيـنـ﴾

⁸ المصدر السابق، ص 146-147.

⁹ محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة (القاهرة/بيروت: دار الشرق، ط 10، 1400هـ/1980م)، ص 543.

¹⁰ محمد الغزالى، هذا ديننا، مرجع سابق، ص 204-205.

آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهُ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ الْأَمْرُ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا⁵⁵⁾ (النساء: 59). كما أن أهمية هذه المرجعية تكمن في كونها تعصم من أي خلل في تراتبية النظر وتقييم حركة الأولويات والكليات والجزئيات وتنظيم أفق الحركة الذهنية ومعمار البناء الفكري، كما تكمن أيضاً في مدى إسهامها من أجل جعل الفكر الإسلامي ونشاط العقل المسلم - في قضايا الاختلاف - بمنأى عن حالات الولاء والتبعية لمركيزيات الجذب الأخرى، باعتبار أن حالة تذبذب الولاء أو التماهي^{*} مع مرجعيات أخرى مغايرة يمثل خطورة حقيقية على سلامه وعافية المذهبية الإسلامية ومرجعيتها المنهجية.

ثانياً: أسس الوحدة الثقافية بين المسلمين عند الغزالي:

يعتقد الشيخ الغزالي أن وحدة الأمة الإسلامية في أبعادها الحضارية والمذهبية الشاملة لا يمكن أن تتحقق فاعليتها في الفعل والأداء والشعور المخلص تجاه واجبات الرسالة، إذا ضعف ولاء المسلمين للمرجعية المهيمنة والضابطة لحركة الفكر والتصور والتي سبق بيانها، وكذلك إذا وهنت بواعث الاهتمام والعناية بأسس ومقومات هذه الوحدة.. ويمكن أن نستنتج - من خلال تبع كتابات الشيخ الغزالي - أن أسس ومقومات تلك الغاية الجليلة تمثل في العناصر الآتية:

1 - تحديد المكانة العلمية للثقافة الذاتية والعنائية بمكوناتها: يرى الشيخ الغزالي أن لكل أمة من أمم الدنيا ثقافة ملامح شخصيتها التي تعرف بها بين الناس في العالم، وتحدد بدقة أبعاد هويتها الحضارية وسماتها النفسية والعقلية وتشرح بأمانة وإخلاص عقائدها التي تؤمن بها وتنطلق منها، وتُبيّن الأهداف والغايات التي تصبو إليها وترنو لإنجازها، وتُبشر بأخلاقياتها وقيمها وتقاليدها وشرائعها على كافة المستويات بدعى من إطار الأسرة إلى العلاقات الدولية والإنسانية العامة؛ وتحدد مكانة هذه الثقافة من خلال ممارسة دور الإشراف والوصاية على توجيهه المنجزات الحضارية للأمة وجعلها في خدمة منهاجها

* التماهي هنا يعني التقارب أو الانسجام. وأصلها من اليسر واللينة والرفق، أقول: مهمٌّ أي ليس؛ ومَمَّةً الإبل: رفيق بها؛ وسَيِّرَهُهُ: رفيق؛ والمَهِيُّ: لرخاء الجبل ونحوه... أقول: أهميت الفرس: أي أرخيت له من عنانه. وللكلمة اشتراكات كبيرة يمكن مراجعتها في مادة "مهه" في لسان العرب لابن منظور.

وأهدافها الكبرى في الحياة؛ وبالنسبة لنا نحن المسلمين فإن الثقافة الذاتية تمثل لدينا بشكل أساس في العلوم الإسلامية بشتى مخصوصاتها ومعارفها وفروعها ومناهجها، ولما كانت هذه الثقافة تمثل روح الأمة وشخصيتها الفكرية والحضارية فإن القوى الاستعمارية والتنصيرية والتهويدية والإلحادية ونحوها عملت ومازالت وبذل جهوداً حثيثة على هدم مؤسسات وعلم وقى هذه الثقافة، وإضعاف وتحييد آثارها العملية على صعيد صياغة الشخصية الإسلامية، وصعيد التأسيس الاجتماعي والبناء الثقافي وتجديد أمل الانبعاث الحضاري لأمتنا ومشروعها الإنساني والإعماري الشّير.

ويدرك الشيخ الغزالي أهمية هذه القوى الدافعة في كيان الأمة والتي تنشئها هذه الثقافة فيقول: "إن هذه الثقافة الذاتية هي إكسير الحياة للأمة والحمد لله رب لطاقاتها الأدبية والمادية".¹¹

وصفوة القول هنا - كما يظهر لنا - أن الشيخ الغزالي من يعولون على أهمية الثقافة الذاتية في تمسك الخصائص المشتركة لطبيعة المسلمين الفكرية والحضارية. ومن ثم فهو يدعو عبر الكثير من كتاباته وأحاديثه إلى ضرورة اهتمام كل المسلمين بهذه الثقافة وتأسيس معاهدها وتقريب الناشئة وطلب العلم والمعرفة من منابعها ورجالاتها، ويرى أن ذلك واجب ديني يفرضه علينا ولاؤنا لرسالتنا، كما تحدّث عنه سنن التدافع بين الحضارات والأديان والمذاهب، فضلاً عن كونه ضرورة واقعية ملزمة لحماية وصون قسمات ومميزات هوية أمتنا وشخصيتها الحضارية.

إن الثقافة الذاتية - وفقاً لهذا التشخيص - تمثل الدرع الواقي والسياج الحافظ لخصائص الأمة، كما تمثل قوة دفع حقيقة لعامل الغزو، ومحاولات التبدل الثقافي والفكري والوحданى التي تبذل على مختلف الأصعدة للانحراف بالتوجه الحضاري الفطري لأمتنا الإسلامية، وما ذلك إلا لكون هذه الثقافة ترمز بأبعادها ومضمونها الوظيفية إلى وحدة هذه الأمة في مزاجها الفكري والنفسي المشترك، وإلى عمق الجذب أمتنا الفطري إلى روح أصالتها وقوة انسجامها الطبيعي مع تجلياتها المذهبية والحضارية.*

¹¹ محمد الغزالي، *علم وأدوية (باتنة/الجزائر: دار الشهاب للطباعة والنشر، ط2، 1986م)*، ص 168-169.
* أقصد بالتحليلات المذهبية والحضارية في هذا السياق عطاءات الفكر الإسلامي وثمار الحضارة الإسلامية العاتمة بالإيمان والعدل، ولا شك أن الثقافة الذاتية لها دورها الحاسم في استبقاء انتفاع الأمة بزخم هذه العطاءات والثمار، بل إنه لا بقاء لطبيعة أمتنا الحضارية دون هذه الثقافة!

إن تقسيم الشيخ الغزالي وتحديده لأهمية الثقافة الذاتية ومكانتها في معمار الأمة الفكرية والحضاري، يلتقي إلى حد التطابق والتماهي مع تقسيمات وتحديدات معظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين، وكذا المعاصرين منهم جدًا من أمثال محسن عبد الحميد الذي يجزم بأن الثقافة الذاتية لأمتنا هي علة بقاء وتماسك خصائص هذه الأمة الفكرية والحضارية وإنقاذ سمات هويتها وذريتها من الذوبان والتلاشي، وذلك على الرغم من فقدان عنصر التكافؤ والتوازن في معادلة الصراع والتدافع.. لكن ومع ذلك كله – كما يؤكّد – فإن تاريخ صراع الأفكار والمذاهب والولاءات الثقافية والحضارية قد أثبت لنا خلال القرن الأخير – قرن التدافع الحاد – حقيقة أن "الأمة الإسلامية" رفضت محاولات إسقاطها النهائي أمام الأمم الأخرى وحضاراتها لأن نطها مختلف عن النمط الحضاري الإسلامي في جذوره وخصائصه وتطوره. وهي لا تزال تحفظ بجوانب من القوة في مقوماتها الإسلامية وخصوصيتها الذاتية المستقلة، على الرغم من غزو الحضارة الغربية لقيمها وحياتها وسلوك أفرادها، بوصف ذلك نتيجة طبيعية لعوامل الإعاقة والتأخير في القرون الأخيرة من حياتها، تلك التي أسلمتها إلى الأعداء المستعمرين الذين خططوا للقضاء على وجودها وخصوصيتها وتحريفها عن طريقها الحضاري المستقل، زد على ذلك الاحتكاك الطبيعي بين الحضارات الذي هو سنة من السنن الاجتماعية في المجتمع الإنساني".¹²

2 - تحديد الرسالة العالمية للأمة: يذهب الشيخ الغزالي في رؤيته الفكرية إلى كون الدعوة الإسلامية تمثل قاسماً مشتركاً وإطاراً جاماً بين المسلمين كافة في المشارق والمغارب، وذلك لما توحي به العقيدة الإسلامية وما تلزم به كل مسلم من واجبات تجاه هذه الدعوة، بل إن هذه الرسالة مسلمة معروفة في أدبيات الثقافة الإسلامية وتاريخ حضارتنا، وقد رسّخ القرآن الكريم وأكّد المكانة المركبة لهذه الرسالة في منظومة أولويات وواجبات الأمة الإسلامية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿كُتُّمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110).

ثم إن تحليل ودراسة مسار ومراحل هذه الدعوة وتبني خطها البياني يكشف حقيقة كيف كانت هذه المهمة الجليلة بحق عامل وحدة وتوحيد داخل الكيان الإسلامي الكبير

¹² محسن عبد الحميد، *المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري*، سلسلة كتاب الأمة، رقم 6 (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1405هـ/1985م)، ص 41.

على الرغم من اختلاف الألسنة والعادات والظروف الاجتماعية والبيئات الجغرافية ونحو ذلك من التغيرات الفطرية والطبيعية، وبعض الدراسات المتخصصة تشير إلى أن أو اصر القريبي ووسائل المناصرة والالتحام والدعم تزداد قوة ومتانة وفعالية بين المسلمين كلما ازداد جهاز الدعوة نشاطاً وكلما ازداد الدعاة خبرةً ومهارةً وكفاءةً بأساليب نشر نور هذه الرسالة وهدایاتها في شتى آفاق المعمورة؛ ومعنى ذلك أو ما يستفاد من هذا الاستنتاج أنه يجب على المسلمين في كل مرحلة وفي أي منعطف من تاريخهم أن يجددوا أشكال ومواثيق التحالف بينهم العالمية وأن يعملوا جاهدين مخلصين لإقامة المجتمع الإسلامي بوصفه نموذجاً يسير في الحياة وفقاً لمقتضيات هذه الرسالة ووفاءً وخدمة لشأنها وقضاياها، فهي من مقومات وجودتهم وانسجام خصائصهم الحضارية وشخصياتهم الفكرية.

ومن منظور الشيخ الغزالى أن الرسالة العالمية لل المسلمين لن تبلور صورة فعاليتها على صعيد التوحيد العاطفى والثقافى بين المسلمين إلا إذا كانت العلاقة بين الأمة والرسالة في المستوى الذى أراده الله تعالى وبين تبعاته فى محكم التنزيل، وفي ذلك يقول الشيخ الغزالى: "الإسلام أمة ورسالة.. أما الرسالة فهي الهدى الإلهى الذى يخبط لنا الصراط المستقيم ويدعونا إلى السير فيه، وأما الأمة فهي الجماعة التى تنقل التوجيه الإلهى من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، أي تفهم الوحي وتتفنده وتدعوه الآخرين إلى اعتقاده".¹³

ويدلل الشيخ الغزالى على كون هذه الوظيفة المشتركة بين أبناء وشعوب الأمة الإسلامية، هي من دعامات الشعور الواحد في الأمة، ومن أسباب المناعة الذاتية داخل كيان ومؤسسات الأمة. بمثيلين من التاريخ الإسلامي: الأول عندما سقطت الخلافة العباسية وتهاوت صروح دولتها تحت مطارق التار، فسرعان ما استيقظت أسباب المناعة الكامنة في العمق الحضاري من كيان الأمة، وتحرك جهاز الدعوة بسرعة وفعالية حتى وقع حدث من أعجب الأحداث في تاريخ الدنيا، فقد أسلم غزاة التار بعد تحقيقهم الانتصار العسكري، ونجح جهاز الدعوة في استيعابهم بينما فشلت الأجهزة الرسمية للكنيسة في اجتذابهم إلى دائرتها وعاد المنذوب البابوي إلى روما منكسر الخاطر يجر أذیال الفشل ومرارة المزيمة؛ والمثل الثاني عندما اشتربكت الأمة الإسلامية مع صلباني العصور الوسطى

¹³ محمد الغزالى، علل وأدوية، مرجع سابق، ص 203-204.

فإن الدعاة هم الذين اعترضوا بحق روح المزينة عند بعض الحكام، وظلوا مستميتين بقوة وصلابة وثقة في الدفاع عن الأمة واستطاعوا بما توارثوه من إذكاء نار المقاومة والندية الإمامية تزويد القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي بجيش من الفدائين الشجعان ينشدون الشهادة في البر والبحر، وبهذه الروح المؤمنة الراشدة في الله ونصر جنده تحررت القدس بعد تسعين سنة من الاشتباك، وبعد قرن آخر كان كل شبر من أرض الإسلام قد غسل غسلاً من آثار المجتمع المغيرين من الصليبيين أتباع بطرس الناسك؛ إن هناك رجالاً لم نعرف أسماءهم وإنما رأينا آثارهم وشواهد أعمالهم هم الذين أقالوا العالم الإسلامي من عثرته وأنهضوه من كبوته، إنهم جنود مجهولون في هذه الدنيا ولكنهم غدوا أعلاماً شامخة في ربى الخلد، إن هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين حافظوا على تماسك الخصائص العامة في الأمة ووحدتها الشعورية والعاطفية إنما هم ثمرة من ثمار الوظيفة العالمية لهذه الأمة.¹⁴

ولعله من الواجب أيضاً تدليلاً على دور مضمون ومنهج هذه الوظيفة في تحقيق الوحدة الفكرية والثقافية بين المسلمين، ذكر الجهود الطيبة الكريمة التي أسداها المستعربون - أو المسلمين من غير الجنس العربي - للحضارة المشتركة، وسر ذلك - كما يرى الشيخ الغزالي - أن الإسلام لم يجعل من العروبة قومية خاصة، وإنما جعل منها "دائرة إعلامية فسيحة الأرجاء وسعت شتى الدماء والألوان، وانضوى تحت لوائها سيل موّارٌ من المؤمنين الذين تركوا بني جلدتهم، وآثروا هذه الجنسية الجديدة، وأسدوا إليها من الخدمات العلمية والأدبية والسياسية والعسكرية ما يعجز عنه قوم ترجع أرورتهم إلى عاد وثمود أو عدنان وقحطان؛ إن النزعة الإنسانية العريقة في مجتمعنا العربي تعود إلى عالمية الرسالة الإسلامية وتطلّعها الدائم إلى استيعاب عناصر بشرية مختلفة النسب واللون؛ ووفاء العرب الأولين بمتطلبات هذه الرسالة وانفساح صدورهم لكل وافد على الإسلام داخل في العروبة.. ولذلك يرفض العربي المؤمن أي تعصب جنسياً وأي استعلاء عنصري (...)

ولا ريب أن المجتمع العربي^{**} قد ازدهر بهذه النزعة الإنسانية النبيلة، وأفاد منها أجيال فائدة، وما من نشاط مادي أو أدبي أو علمي برز في هذه المجتمع وعلا به قدره إلاّ كان المستعربون من ورائه... تلمع ذلك جلّياً في العلوم الشرعية وفنون الأدب وآفاق العمران

¹⁴ المصدر نفسه، ص 204.

* يستخدم الشيخ الغزالي أحياناً مصطلح "المجتمع العربي" بدلاً من "المجتمع الإسلامي"، ولعل علة ذلك عنده غلبة اللسان العربي على حركة الحضارة الإسلامية إبان عصور وأطوار ازدهارها.

ومناهي الفلسفة، وفي أرجاء حضارتنا التي نملأ أفواهنا بها فخرًا... لقد كتلت في مكة أرى أغلب الملامح البشرية حول البيت العتيق، ونظرت يوماً إلى مئات المساجد في القاهرة - عاصمةعروبة والإسلام - فرأيت جل بناتها من الأعاجم. بمعانهم الأولى. وغفلت البصر في مواريثنا النقلية والعقلية فرأيت سنتها من أولئك الرجال الذين دخلوا العروبة من أبواب الإسلام، وجعلوا العروبة بهذا المدخل الكريم متلقى ساميًّا لأنضر ما عرفت الحياة من جهد وأشرف ما وعت من غاية^{١٥}؛ وينذهب الشيخ الغزالي إلى أن هذه الخاصية أو الدعامة الموحدة للأمة الإسلامية في المشارق والمغارب هي من الأسباب الرئيسة التي أوغرت صدر قوى الاحتلال الحاقدة على الإسلام، وجعلتها تعمل على تفتیت أرجائه وتزييق وحدته، لأن تلك القوى لا تعرف مثل هذه الروابط والخصائص، مما يجمع بينها إنما هو المصلحة الجشعة والتطاول على الإسلام فحسب.

٣ - تحديد علاقة العرب بغيرهم من المسلمين: يعتقد كل علماء الإسلام المحققيين بحقيقة كون الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وعرف بهم أمم المعمورة، باصطفاء الله تعالى للنبي الخاتم ﷺ من بين ظهرانيهم، وتخليد لسانهم في كتابه المعجز الخالد، حتى غدا اللسان العربي جزءاً من الوحي وديناً مع الدينُ الذي لا يقبل الله سواه... والشيخ الغزالي من يرون هذا الرأي من علماء الأمة ومفكريها، ومن يؤمنون به أشد ما يكون الإيمان وأرسخه، وفي ذلك نراه يقول: "العرب - بالإسلام وحده - دخلوا التاريخ وعرفتهم القرارات المعمورة ولو لا الإسلام ما جازوا جزيرتهم، لو ما كان لديهم شيء يقدمونه للناس! ففضل الإسلام على العرب لا ينكره إلاّ أفالك جريء".^{١٦}

لكن حديث الشيخ الغزالي عن حقيقة فضل الإسلام على العرب وثقافتهم لا يعني بالمقابل غمط حق العرب، فهو من المفكرين المسلمين الذين صاغوا ما يصح أن يطلق

^{١٥} محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية (ال Cairo: مكتبة دار العروبة، د. ت)، ص 111، 112، 113.
 * توجد كثیر من الآثار والمروريات تشير إلى تلازم الإسلام واللغة العربية وفضل الوحي الخاتم على العربية، فقد كتب علي بن أبي طالب إلى أبي موسى الأشعري يقول: "أما بعد فتفقهوا في السنة وتقنهوا في العربية أعزبوا القرآن فإنه عربي، وتعلموا العربية فإنها من دينكم"، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، وأعلم أن اعتقاد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً ييناً، وإن اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بالعربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"... إلخ.

^{١٦} محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه (الجزائر: دار الكتب، 1987)، ص 94، 95، 98.

عليه نظرية في العلاقة الصحيحة بين العروبة والإسلام، إذ يرى الشيخ أنه لا يصلح لقيادة المسلمين إلا من أشرب قلبه روح العربية وتفقه في تراثها وخصائصها، وعلة ذلك عنده أن الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين هما: الكتاب الكريم والسنّة المطهرة؛ والكتاب الكريم - كما رأينا - نزل بلغة العرب، والرسول ﷺ عربي الحياة والتراث.. وما يفقهه حقيقة الوحي ومنهج الرسالة إلا خبير بأدب العروبة راسخ القدم في بيانها، وذوّاقة لطبيعة البلاغة العربية، بصير بدلائل الكلام القريبة والبعيدة وبمعانيه الأصلية والثانوية.. ولا يعني بالعروبة هنا الجنس، بل يعني اللسان، لا يعني النسب القريب أو البعيد ولا الدم التقى أو المختلط، بل يعني العرب جميعاً سواء فيهم الصریح الأصل أو المستعرب الذي كان يتتمي إلى أي جنس آخر في أي قارة من قارات الدنيا، فما دام قد انسلاخ من جلدته الأولى، ودخل في هذه الأمة الجديدة مذرياً نفسه في كيانها، مندجاً بأفكاره ومشاعره فيها فقد أصبح منها دون نكير ولا غرابة.. ونحن نرى أنها حنيفة فقيها عريضاً وصلاح الدين قائداً عربياً وسيبوه والزمخشري والرازي علماء عرباً، والألفوف المؤلفة من الرجال الذين خدموا الإسلام في شتى آفاق السياسة والثقافة والأدب والتشريع مهما كانت متابتهم الأولى هم عرب، لا يفترقون في قليل أو كثير عن العرب الأصلياء من بيت النبوة نفسه (...) ونحن العرب ما نعطي أنفسنا الحق في قيادة روحية أو سياسية لأحد من الناس إلا لأن الله اصطفى لقتنا للحق الذي أوحاه، وبعث منا النبي الذي ارتضاه، ويوم نفخر بأننا عرب وحسب، فإننا نسقط عن المكانة التي رُشحنا لها، ونعطي الآخرين الحق في الابتعاد عنا، ونخون بذلك الأمانة التي وكلها الله تعالى إلينا.. إن مطالبتنا بحق العروبة في قيادة العالم الإسلامي كلها وبحقها في إرشاد الجنس البشري أجمع يعود إلى تلك المواريث المقدسة التي آلت إلينا، فخلدونا بها وسمت بسموه مكانتنا".¹⁷

إن إدراك العرب لواجباتهم تجاه إخوان العقيدة والمصير وفهم ظروفهم وأوضاعهم هو - برأي الشيخ الغزالي - جزء من الإحساس المقدس إزاء مقتضيات رسالتهم وما ناطته بهم الأقدار العليا من تكاليف وأعباء؛ وكأن فهم الشيخ الغزالي هنا هذه المعادلة يشترط لصياغة المعنى الصحيح للأئمة الإسلامية - التي تعدّ من المرتكزات الروحية والثقافية والسياسية بين المسلمين - أن توضع قضية العروبة في إطارها الحضاري السليم لتلافي أي حساسيات

¹⁷ محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، مرجع سابق، ص 14، 15، 16.

سلبية مؤثرة في وحدة الكيان الإسلامي، ولعل الشيخ الغزالي بهذا الفهم قد استشف العبرة من بعض مراحل التاريخ الإسلامي، والتي منها ظهور الحركة الشعورية في القديم، ويروز بعض الاتجاهات المنحرفة للقومية العربية في العصر الحديث، ومن هنا فإن الشيخ الغزالي ولتجنب هذه المحاذير التي حدثت فعلاً في تاريخ الأمة وأساعات يقيناً لوحدتها الشعورية والفكرية يصرح بأن القيام بهذا الواجب المقدس إنما هو عام ومعلق بذمة الأمة كلها، حيث يقول في صيغة تساءل احتجاجي: "أريد أن أسأل العرب - وهم أمي الكبار وعشيرتي الأقربون - هل درسوا علاقتهم بالعالم الإسلامي خلال هذا القرن، أو خلال القرون الماضية؟ إن هذه الدراسة مطلوبة وإن الغفلة عن عبرها جريمة دينية وتاريخية ضخمة، إن هذه الدراسة ليست عمل الساسة والحكام، بل هي شغل الدعاة والفقهاء والأدباء، وتکاد تكون في هذا العصر فريضة كذلك على الاجتماعيين والاقتصاديين.. لقد أفرغعني أن هناك نزعة مجونة تشغل العرب بقضاياهم الخاصة وتصرفهم عن مشكلات العالم الإسلامي الواسع وتحبس التفكير والاهتمام فيما يمس المصلحة العربية وحدها، أما ما وراء ذلك فالاشغال به من فضول البحث أو لغو الكلام، وظهرت هذه النزعة دمية الوجه محقرة الفكر عندما أغارت الشيوعية على أفغانستان المسلمة، فإن دولاً وجماعات عربية رأت أن هذه الغارة لا تقلق الضمير!! ولا ينبغي أن تشغلنا عن قضية فلسطين مثلاً.. الحق أن هذا الموقف يجعلني أميط اللثام عن خيانات فاجرة اقترفها عرب كثيرون ضد الإسلام وضد المتنمرين إليه في شتى القارات فإن السكوت عن ذلك طعنة نافذة تصيب الإسلام في يومه وغده وتهدد أمتنا الإسلامية الكبرى بأفحى التمزق والخسران".¹⁸ ويرى الشيخ الغزالي أن من واجبات العرب الحضارية إزاء إخوان العقيدة والمصير القيام بجهد خاص لخدمة لغة الوحي، لكن الشيخ الغزالي لا يعتقد بأن الإسلام جاء لتعريب الشعوب التي تعتنقه فهو رسالة هدایات عامة قبل كل شيء، غير أن القيام بواجب تيسير هذه الهدایات قد يتطلب شيئاً من المعرفة بالعربية، خاصة أنه ثبت بالتجربة أن اللغة العربية هي الوسيلة المثلثة لاستيعاب الإسلام وفهمه فهماً صحيحاً، فالقرآن عربي والسنة عربية والفقه عربي.. يضاف إلى ذلك أن اللغة العربية بما تحدثه من مؤثرات في الوجدان والتفكير والتصور تعدّ - من هذه الزاوية - من أهم عناصر التوحيد الثقافي بين المسلمين، فقد ثبت

18 محمد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق، ص224.

أن للحرف الذي تدون به تأثيراً نفسياً وشعورياً عميقاً له صلة وثيقة بوحدة الناطقين بهذه اللغة من حيث ارتباطهم بتراث هذا الحرف ومخزونه الحضاري، فهو في كل لغة يمثل جزءاً من التراث الشعبي المشترك للمتكلمين لا للغة، كما يمثل جزءاً من شخصيتهم الحضارية وهو ينتمي لهم الثقافية وأمزاجتهم النفسية؛ وعليه فإن ارتباط الإنسان بالحرف الذي تكتب به لغته ارتباط قوي تمتدُّ جذوره ومؤثراته إلى أعمق نفسيّة بعيدة الغور؛ وبالنسبة للغة العربية فقد امتنع بروح العقيدة الإسلامية والتراث الإسلامي إلى درجة يصعب معها الفصل الكامل بينهما، حتى أن أكثر من ثلثين لغة في إفريقيا وحدها - وبتأثير من هذه العقيدة - قد كتبت بالحرف العربي، منها لغة الهوسا، والفلاني، والسواحلية، والصومالية، والمورو، والنوبية... إلخ.¹⁹

فمن المسلمات القطعية التي هي من ثوابت الثقافة المشتركة بين المسلمين امتزج الإسلام والوحى باللغة العربية، وعلة ذلك أن الطور الذي دخل فيه العرب باحتضانهم رسالة الإسلام قد أنشأهم خلقاً آخر، وأفضى بهم إلى ميلاد جديد، وأدخلهم التاريخ من أبواب شتى لا من باب واحد "ثم استحكمت الوشائج بين العرب والإسلام، فأصبح يعرف بهم ويعرفون به، لا يغض من ذلك أن بقية ضئيلة من العرب ظلوا على دياناتهم الأولى هوداً أو نصارى، نعم اقتربت العروبة والإسلام من أمد بعيد في حضارة واحدة وتاريخ مشترك، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوي الجامع، فهو إذا تصور الإسلام لا يستطيع أن ينسى العرب الذين آمنوا به وطوفوا أرجاء العالمين برسالته؛ وهو إذا تصور العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذي أعلى شأنها وخلد أدبها وجمع من شتايتها دولة قدمت للإنسانية أركي المثل وأرجح القيم، إن الإسلام لا ينفك عن العروبة أبداً، ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة ينزل بها وتكون وعاءً لهدياته، وهي العربية"²⁰ وهكذا فإن تحديد علاقة العرب بغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية الكبير وفقاً لهذه الصياغة التي يقدمها الشيخ الغزالي - وهي صياغة مستنبطة من مفاهيم الوحي وتصورات النصوص المعصومة - تصحى أكثر من ضرورة لبناء وتأسيس المنظومة الحضارية

¹⁹ يوسف الخليفة أبو بكر، "الحرف العربي واللغات الإفريقية"، مجلة رسالة الجهاد الليبية، مالطا، العدد 94، ديسمبر 1990م، ص 50-51.

²⁰ محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، مرجع سابق، ص 9-10.

المتكاملة للوحدة بين المسلمين على أساس ومرتكزات فاعلة قوية وبعيدة عن شتى الحساسيات السياسية والمذهبية التي أساءت تارياً لهذه الرابطة.

٤ - العمل بجذأ التقرير المذهبي وتحميم الخلافات: يقدم الشيخ الغزالى رؤية في الموضوع باللغة الأهمية خاصة في صلتها بأركان الفقه الحضاري وفلسفه الوحدة والتوحيد والتضامن بين المسلمين؛ إن مذاهب الفقه الإسلامي – كما يرى الشيخ الغزالى – على الرغم من أنها وضعت أساساً لغرض التيسير على المكلفين وإدراك مراد الله تعالى بسهولة من أفعالهم، وفهم بعض المقاصد والحكم من التكاليف، بيد أن الكثير من العقول الكليلة والنفوس المعتلة استطاعت تحويل هذا الموضوع عن مدراره الطبيعي ونهجه العتيد محدثة بذلك جانباً من الاحرف بالطبيعة الخصائص التجميعية للثقافة الإسلامية، وذلك بتصورها المغلوط وفهمها للرأي الفقهي على أساس أنه وجهة نظر الدين الوحيدة والأخيرة، والتشبث بهذا المنظور كان له آثاره وعواقبه الوخيمة على وحدة المسلمين الفكرية والثقافية؛ فكلمة مذهب - برأي الشيخ الغزالى - لا تعني إلا وجهة نظر فقيه ما في فهم النص السماوي.. ووجهة النظر هذه - من ثمة - لا عصمة لها ولا قداسة لأنها محاولة تفكير يشرى لفهم الوحي الإلهي أو النص المعصوم... فالتعويل من جهة الأصل على الوحي والكرامة في الاتمام إليه والتلقى عنه وحده.²¹

فالشيخ الغزالى ينظر إلى الخلاف الفقهي من زاوية أنه تبادر طبعي في وجهات النظر اقتضته طبيعة العلاقة بين العقل والنقل فضلاً عن بقية العوامل الموضوعية الأخرى كالدلائل الضنية للنص وجود كلمات في العربية تفيد الشيء وضده والتقديرات المتباعدة بين الفقهاء في شروط الاستدلال بأحاديث الآحاد.. إلخ.

وعليه فإن هذا الخلاف قد يكون مصدر ثراء فكري وتشريعي يدعم رصيد العقل الإسلامي العلمي والمعرفي، إذا كان ناشئاً عن تجرّد وإخلاص وروح اجتهادية مبدعة بعيداً عن أمراض القلوب وعمل النفوس وأهواء الدنيا؛ ووفقاً لهذا التشخيص الفكري لهذه القضية فإن الخلاف الفقهي يستحيل أن يكون معصية، وإنما يكون معصية إذا كانت يواضعه مضادة للطبيعة الموضوعية التي أوجده في الواقع، وقد سارع الشيخ الغزالى إلى التصرّف بذلك بعد تحقيقه العلمي في خلفيات هذه المسألة، وعلاقتها - خاصة في حالة

²¹ محمد الغزالى، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (الجزائر: دار الكتب، 1408هـ/1988م)، ص.63.

مؤثراتها السلبية - بالإطار العام للوحدة الفكرية بين المسلمين، حيث نجده يقول بأسلوب العالم والمفكر الحريص على وحدة أمته الداخلية وانسجام الطبيعة الفكرية فيها مع الغايات البعيدة لرسالة الأمة: "لقد لاحظت - وأستغفرُ ربِّي وأستعيذُ به - أن عدداً من قادة الثقافة ورجال السياسة **مُبْتَلُون** بهذا السرطان، وأن عبادة الذات والتقوّع في مطامعها تسيطر عليهم.. ويشارّكهم في هذا البلاء أذناب يطّلون حول مآربهم وبخالسهم طنين الذباب.. أمراض القلوب لا الخلاف الفقهي أخطر شيء على الديننا والدين معاً".²²

فمنظور الشيخ الغزالي الفكري إذاً - الذي يرى بأن الحصيلة العلمية لذاهب الفقه الإسلامي إنما هي زاد معرفي وثروة فكرية وتشريعية وتنظيمية تمنح العقل المسلم إذا ما أحسن التعامل مع معطياتها وزخمها الأحاذ والمتّنوع في النظر المتدقق والإبداع المتوجه، صفة الحركة الدائمة والتفاعل المعطاء والقدرة على الاستيعاب والهضم والتجاور والتجدد التوالي - لا يسمح على الإطلاق أن يقود الخلاف الفقهي إلى مثابة فصم عرى الوحدة الثقافية والعاطفية بين المسلمين.

ومن هذا المنطلق فقد رأينا الشيخ الغزالي يحمل بشدة على ظاهرة التقليد. معناها السلي المسيء لوسائل القربي الروحية والشعورية بين المسلمين، لأنّه يريد حصر الآراء والاجتهادات الفقهية في مجال دائّرتها الطبيعية وفضاءاتها العلمية والمنهجية، إذ إنه من يرون أن "للرأي الفقهي مكانة العلمية، ولمن شاء أن يأخذ به وأن يدعو إليه غيره، ونحن قد نؤثر رأياً على رأي لأن اقتناعنا بهذا أكثر من اقتناعنا بذلك أو لأن هذا الرأي أدنى إلى تحقيق المصلحة العامة وأرفق بعباد الله، والشيء الذي نرفضه ويرفضه جمهور العقلاة أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين وأن ما عده ليس بدين، وأن يحمد على ما عنده جموداً قد يضر بالإسلام كله ويتصدّع وحدته (...)" وقد قرأت ورأيت من أمراض التعصب المذهبي ما يثير الاشمئزاز ويدعو إلى الدهشة، وكان الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصدًا إلى تزييف المسلمين وإهانة معارضيهم في الفكر بعلل مختلفة".²³

وسعياً لجعل قضية التقارب المذهبي وتحميد الخلافات التاريخية والفقهية من بنود مركبات الوحدة الفكرية والثقافية بين أبناء أمتنا الإسلامية الكبيرة، فقد اجتهد الشيخ

²² محمد الغزالي، *تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل* (ميريلن/فرجينيا: المعهد العالمي للتفكير الإسلامي، ط، 1412هـ/1991م)، ص97، 98، 100.

²³ محمد الغزالي، *دستور الوحدة الثقافية*، مرجع سابق، ص107.

الغزالى وقدم رؤية في الموضوع نحسب أنها موضع احترام وتقدير كل المذاهب والاتجاهات الإسلامية، وقد شملت هذه الرؤية العلاقة بين السنة والشيعة وشتى مدارس ومشارب الفقه الإسلامي، ومن الأغراض والمقاصد التي تهدف إليها هذه الرؤية تخفيف مواطن الخلاف بين المسلمين خاصة بعد أن أوهن الزمن دواعيها وتحميد بعضها الآخر الذي ما يزال يبعث على الجدل، لفسح هذا الأفق أمام جهود تجميع هذه الأمة وتكللها كي تستكمل شروط مجابتها للتحديات الضخمة والخطيرة التي تهدد كل مقوماتها بما في ذلك وجودها ذاته، ولعل ما يدعم هذه الرؤية أكثر أن قوى الاحتلال العالمي بات يستفزها بعنف أمر استرجاع الشعوب الإسلامية هويتها التاريخية والفكريّة وتناغمها مع مقومات وخصائص شخصيتها الحضارية ذات المضمون الإسلامي؟ هل هذه الأسباب جاءت جهاد الشيخ الغزالى على هذا الصعيد مفعماً بالتوتر والإشراق على حاضر ومستقبل هذه الأمة، وكان من أشد الأمور تأثيراً في نفسه وأنكرها إلى قلبه وضميره "افتعال الأسباب لتفريق الكلمة وتمزيق الأمة.. ربما اختلفت وجهات الأنظار كيف يستريح بعضاً لأنفسهم أن ينطلقوا الفرقـة خلقاً وأن يقحموها على الواقع إفحاماً، لا لشيء إلا لرؤـية الناس أحـزاباً متـناحرـة وطـوائف متـابـرة. إنـي آسـف لأنـ بعضـ من يـرسلـونـ الكلـامـ عـلـىـ عـواـنهـ، لاـ بلـ بـعـضـ من يـسوـقـونـ التـهـمـ جـزاـفـاـ غـيرـ مـبـالـيـنـ بـعـواـقـبـهاـ دـخـلـواـ فـيـ مـيدـانـ الفـكـرـ الإـسـلامـيـ بـهـذـهـ الـأخـلـاقـ الـمـعـلـولـةـ فـأـسـاعـواـ إـلـىـ إـلـاسـلامـ وـأـمـتـهـ شـرـ إـسـاعـةـ.. سـمعـتـ وـاحـدـاـ مـنـ هـؤـلـاءـ يـقـولـ فـيـ مـجـلسـ عـلـمـ إـنـ لـلـشـيـعـةـ قـرـآنـ آخـرـ يـزـيدـ وـيـنـقـصـ عـنـ قـرـآنـ الـمـعـرـوفـ، * فـقـلـتـ لـهـ: أـينـ هـذـاـ الـقـرـآنـ؟ إـنـ الـعـالـمـ إـلـاسـلامـ الـذـيـ اـمـتـدـ رـقـعـتـهـ فـيـ ثـلـاثـ قـارـاتـ ظـلـ مـنـ بـعـثـةـ مـحـمـدـ ﷺـ إـلـىـ يـوـمـنـ هـذـاـ بـعـدـ أـنـ سـلـخـ مـنـ عـمـرـ الـزـمـنـ أـرـبـعـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ لـاـ يـعـرـفـ إـلـاـ مـصـحـفـاـ وـاحـدـاـ مـضـبـطـ الـبـداـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ مـعـدـودـ السـوـرـ وـالـآـيـاتـ وـالـأـلـفـاظـ، فـأـيـنـ هـذـاـ الـقـرـآنـ الـآخـرـ؟ وـلـمـ يـطـلـعـ إـلـإـنـسـ وـالـجـنـ عـلـىـ نـسـخـةـ مـنـهـ خـلـالـ هـذـاـ الـدـهـرـ الطـوـيـلـ؟ لـمـ يـسـاقـ هـذـاـ الـافـتـاءـ؟ـ!ـ وـلـحـسـابـ مـنـ تـقـتـلـ هـذـهـ إـلـإـشـاعـاتـ وـتـلـقـىـ بـيـنـ الـأـغـرـارـ لـيـسـوـ ظـنـهـمـ بـإـخـوـانـهـمـ وـقـدـ يـسـوـءـ

* أميل إلى أن الشيخ الغزالى على علم بما قيل في بعض كتب الشيعة عن رحود (قرآن آخر)! غير الذي يعرفه كل المسلمين، مثل الكلام الذي ورد في كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، للطبرسي التنجي (ت 1320هـ)، خاصة أنه من العلماء المسلمين الذي أسهموا في جهود التعريب أيام الشيخ الفقيه محمود شوتور رحمه الله، ولكنه يدرك أن الغلو يدفع إلى العحاجب، وأن العبرة بالمعتمد المشهور، فإن أدبيات الغلو والهوس الديني هي التي اعتمدها المستشرقون وأعداء الإسلام لإغمار صدور المسلمين وتعزيق الجفوة وروح البغضاء والعداء بين طوائفهم ومذاهبهم. فلنكن جميعاً على حذر وبقظة ونباهة.

ظنهم بكتابهم، إن المصحف واحد يطبع في القاهرة فيقدسه الشيعة في النجف أو في طهران، ويتداولون نسخه بين أيديهم وفي بيوتهم دون أن يخطر ببالهم شيء بتة إلا تquier الكتاب **ومنزلة** - جل شأنه - ومتبلغه **فلم** الكذب على الناس وعلى الوحي؟ ومن هؤلاء الأفاكين من روج أن الشيعة أتباع علي (كرم الله وجهه)، وأن السنيين أتباع محمد **صلوات الله عليه**، وأن الشيعة يرون علياً أحق برسالة محمد **صلوات الله عليه** ويرون شرف علي في انتماهه إلى هذا الرسول في استمساكه بستته، وهو كسائر المسلمين لا يرون بشراً في الأولين والآخرين أعظم من الصادق الأمين ولا أحق منه بالاتباع، فكيف ينسب لهم هذا ال�ذر؟ الواقع أن الذين يرغبون في تقسيم الأمة طوائف متعددة لما لم يجعلوا لهذا التقسيم سبيلاً معقولاً جلأوا إلى افتلال أسباب الفرق، فاتسع لهم ميدان الكذب حين ضاق ميدان الصدق.. لست أنفي أن هناك خلافات فقهية ونظرية بين الشيعة والسنّة، بعضها قريب الغور وبعضها بعيد الغور، يبدأ أن هذه الخلافات لا تستلزم معاشر الجفاء الذي وقع بين الفريقين، وقد نشب خلاف فقهية ونظرية بين مذاهب السنّة نفسها، بل بين أتباع المذهب الواحد منها، ومع ذلك فقد حال العقلاء دون تحول هذا الخلاف إلى خصم بارد أو ساخن.. وكان خيراً للشيعة أن يفهموا أن أهل السنّة يضمرون أعمق الود لأهل البيت وينفرون أشد التفرة مما يسعونهم، وكان خيراً للسنّين أن يفهموا أن الشيعة يلزمون أنفسهم سنن صاحب هذه الرسالة ويعدون الانحراف عنه زيفاً، أما ما وقع من اختلاف فقهى أو نظرى فلا يعلو أن يكون وجهات نظر لها مصادرها العلمية ونية أصحابها إلى الله، وهم - إن أصابوا أم خطأوا - مثابون مأجورون (...) ليكن هناك خطأً حقيقيًّا وقع فيه هذا أو ذاك فهو خطأ لا أقبل الاعتراف به، فلماذا لا يترك البث في هذه الأمور للزمان المطابق يحمل المشكلات الفقهية والنظرية بدل أن تحل في معارك الجدل الذي يفقد فيه المحادلون ضمائركم وصفاءها أو تحل في معارك القتال الذي تنحل فيه عروة الإيمان ويزأر فيه صوت الشيطان.. إن الخلاف الفقهى أو النظرى في كثير من الأمور ليس خبراً تتناوله كل يوم، والقضايا التي دار فيها هذا النزاع يمكن للمسلمين اطراحها جانباً ونسيannyaً أمداً يشتغلون خالله بالبناء لا بالهدم، بالعمل لله في المحاريب المختبطة أو في الميادين المنتجة، أما شغل الناس حتماً بخلافات لها أصل - وما أقلها - أو بخلافات مفتعلة - وما أكثرها - فليس من

الدين في قليل ولا كثير، والذين يحرصون على ذلك ليسوا من الله في شيء".²⁴ وعلى الرغم من أن الشيخ الغزالي وهو يعالج قضية التقريب المذهبية في المنظومة الإسلامية الفقهية والنظرية، يذكر بعض الأحداث والمعطيات الدولية، غير أنَّ من يعن النظر بعمق حول فكره يجد أنَّ إشارته لمسألة إعادة ترتيب المكونات الرئيسة لأنساق الفكر والتقاليف عند المسلمين يجعلها خادمة في سيرورتها وتطوراتها وتجدداتها لوحدة المسلمين وتكتلهم وعزتهم، من ثوابت وخصائص مشروع الشيخ الغزالي الفكري، وعليه فإنَّ المعطيات الدولية وإن لم يتغافل عنها الشيخ، لا تمثل منطلقات أو بواسطتها مركبة لوقفه واجتهداته في مجال التقريب المذهبية وضرورة السعي وبذل الجهد لردم أسباب الفتنة بين المسلمين في مظانها التاريخية فيقول رحمة الله تعالى: "منذ ربع قرن عرفت قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية ونصرتها بقلبي وعقلي جميماً، وقلت: إن اليهود والنصارى طروا مسافة الخلف بينهم وتجمعوا علينا، واغتصبوا أرض فلسطين، وهم الآن يعدون بجعل المسجد الأقصى هيكل سليمان، ومحو شارات الإسلام في تلك الأرضين كلها .. هل الخلاف بين أهل السنة والشيعة أعظم من الخلاف بين اليهود والنصارى؟ هل يتعاون هؤلاء وأولئك في الهجوم علينا ونفشل نحن في الدفاع عن أنفسنا والتساند لرد المعتدين؟ من أجل ذلك أيدت قضية التقريب واقتصرت لها أساساً فقهية وعلمية، وما فهمت ولا فهم غيري من رجال الشيعة أن التقريب تذويب للفارق المذهبي وإدماج لهذا في ذلك".²⁵

وقد لاحظ الشيخ الغزالي بهذا الصدد حجم المأساة التي يخلفها سلطان الاختلاف في واقع المسلمين ويعطي مثلاً على ذلك بال المسلمين الهندو، فهم بعد معاناه أليمة بمحضها في تكوين دولة باكستان إلا أنَّ القضايا المذهبية والخلافات التافهة التي لا معنى لها بددت قواهم وأضعفت هذا الكيان من الداخل منذ البدايات الأولى لميلاده، وقدقرأ الشيخ الغزالي ما كتبه بعض الفقهاء في عصره عن مأساة الخلافات الفقهية والمذهبية، ومنهم الشيخ عبد الجليل عيسى، وخاصة كتابه ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، وتأثير بما قرأ فاتبه إلى كون الخلاف بين الأحزاب في الدول الغربية لا

²⁴ محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين (القاهرة: دار النهضة، ط. ٥، ١٩٩٦)، ص ٢٠٧-٢٠٨.

²⁵ محمد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق، ص ٢٦٣-٢٧٤.

يفضي إلى مثل النتائج المرة والظواهر المريرة التي يتركها الخلاف المذهبي بين المسلمين، فالخلاف بين تلك الأحزاب في الغرب قد يكون حول نظام الجمارك أو نظام المقاير أو نظام تأمين المرافق الكبرى أو بعض جزئيات نظام الحكم، أما الثوابت عندهم فهي ليست موضع مساومة أو نقاش، فولاء الجميع لها واحد وغيرتهم عليها متكاففة، بينما كان يجب أن تكون هذه الصورة من ثمرات الطبيعة الفطرية للخلاف المذهبي في الفقه الإسلامي، لأن الآراء والفهم في هذا الفقه هي فروع فحسب مرتکرة على أصول،²⁶ ومن ثمة فقد استخلص الشیخ الغزالی أن أكثر مساحات الخلاف بين المسلمين تسببت في بروزها الأهواء والعلل الدفينة، لأن الخلاف العلمي وتباین وجهات النظر العقلي يتجرّد - برأيه - لا يصح أن تشير "الحافظ إلّا لدى الرعاع!" ولعله يكون متنفساً لآرائهم وأهواء عند من لا يتقدّم الله. أما العلماء الكبار فلهم شأن آخر، ألا ترى مالكا رضي الله عنه يرفض عرض الخليفة²⁷ أن يجمع الناس على كتابه الموطأ لماذا؟ لأن لدى الناس علمًا آخر قد يؤثرون عليه روایته، ولكن مالكا هو مالك.. أما في هذه الأيام العجاف فقد رأيت حرائق تندلع إثر خلافات مستمرة، ورأيت دين الله يتسع لوجهات نظر لها وزنها المتقارب ولكن دنيا الناس تضيق بما وسعه دين الله، إن الفقه مظلوم عندما نحمله اشتجار الآراء واحتدام العصبيات وتحريج الرجال، لعل المسؤول قلة الفقه، أو لعل المسؤول ضعف التربية الخلقية والأداب النفسيّة فمتى نبرأ من هذه العلل؟²⁸

إن جهود وتأملات الشیخ الغزالی في هذا المجال لا تتوقف عند حد التشخيص المحرّد فقط، بل كانت محاولات جادة لتلمّس الحلول الناجعة لهذه المسألة والإشكالات القائمة أو العلاقة تاريخيًّا، من منطلقات إيمانية بضرورة دعم وخدمة المركبات الأساسية للوحدة الفكرية والثقافية بين المسلمين والتي تمثل - من وجهة نظره - الرصيد الحقيقى والطاقة الأكثر قوة وفعالية وصلابة في وجه الرّجّات والهزّات المزعبة التي تهدّد الكيان الإسلامي وحاضر المسلمين بوسائل مختلفة ومتفاوتة بين التشكيك في الذات وإضعاف عوامل الولاء والانتماء لتلك الأسس والمقومات المشتركة، أو البطش والسطو بالعنف.

²⁶ محمد الغزالی، *دستور الوحدة الثقافية*، مرجع سابق، ص 107-114.

²⁷ هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، رقيل هو هارون الرشيد.

²⁸ محمد الغزالی، *الحق المر* (باتنة/المخازن: دار الشهاب، 1978م)، ج 1، ص 91.

ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الأخطاء التاريخية السابقة التي ارتكبها المسلمون وكان لها تأثير سلبي على وحدة جماعتهم وانسجام صفهم لا يجوز أن تستمر أو أن يبقى لها أثر في واقعهم الراهن، لاحظ أن الصليبيين حين دخلوا الأندلس فإنهم لم ينشروا سوى الكلمة، بينما حين دخل المسلمون الشرق الأوسط فإن طرائقهم ومذاهبهم ما تزال إلى اليوم تكون (عصبة أمم) !! وإذا كان الشيخ يعزّو ذلك إلى طبيعة الإسلام المتميزة في السماحة ونبذ التتعصب، فإنه لا يستطيع بحال تحويل هذه الروح وهذه الطبيعة إلى فتوق وثغرات تؤذن للخيانت والانحرافات أن تناول من وحدة الجماعة المسلمة وتهدم وجودها أو تبعثر العقابيل والعواقب في طريقها،²⁹ ومن ثمة فإن الشيخ الغزالي يضع هذه المبادئ في صورة مقتراحات قد تدفع إلى طريق التصالح والإخاء والتناصر بين الفريقين:³⁰

أ - يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصنون الخالد، والمصدر الأول للتشريع وأن الله حفظه من الريادة والنقص ومن كل أنواع التحرير، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

ب - السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول ﷺ أسوة لأتباعه حتى قيام الساعة، والاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

ج - ما وقع من خلاف بين المسلمين في القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يُحمد - من الناحية العلمية - بتحميدها تاماً ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: ﴿هَذِهِ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134).

د - يواجه المسلمون جميعاً مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة، وهي كبيرة جداً ومحرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

ثم نرى الشيخ الغزالي يصرح بأن له إخوة وأصدقاء من الشيعة يعزّهم ويحبّهم، ويعترف بأن الذي أضرى أو قوى الخلافات بين الفريقين مطالب الحكم وبعض المنازع

²⁹ محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مرجع سابق، ص 158.

³⁰ المصدر نفسه، ص 159-160، والفريقان هنا - كما هو واضح من سياق الحديث - أهل السنة والشيعة.

السياسية، وزاد الطين بلة الافتاء والبهتان والإشاعة؛ ومن أجل جمع الأمة على الصراط المستقيم فإن الشيخ يلتفت الأنظار - بأسلوب احتجاجي واضح - إلى الأهواء والأوهام التي ما تزال حتى الآن "تملاً الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين لا يسيغ العقلاء بقاعها.. ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي وأغلقت الأفواه التي تستمرئ الواقعية والإفك لتلاشت أنواع من الفرق لا مسوغ لوجودها. وإنني إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخواني في كل قُطر، أستشعر الخطر الذي يكتنف المسلمين هنا أو هناك، وكثافة القوى التي تجتمع في هذه الأيام للإجهاز عليهم واستصال شأفتهم؛ لقد انفتحت أحزاب أهل الكتاب وأحزاب الوثنية وأحزاب الماديين جميعاً على استصال شأفتنا فلما متى تفرق؟ لماذا يتبعون أتباع المذاهب الفرعية؟ لماذا تُجتر خلافات بين السلف وتُمنع القدرة على الحياة والأذى؟"³¹

وفي موضع آخر من كتاباته في هذا الموضوع يستمر الشيخ في إثارة تساؤلاته التي تتضمن مقترنات عملية "لماذا لا يدرس في الأزهر فقه الزيدية مثلاً مع فقه المذاهب الأربع؟ لماذا لا توضع أمام الطلاب في الصفوف العليا أو الدنيا صورة صادقة لتفكير الإمامية في الأصول والفروع والسنن المختلفة؟ (...)" فنحن كبعض الأسر التي يرث الأحفاد فيها تراث الأجداد فتكلف الأجيال الجديدة الجديدة أن تخاصم - دونوعي أو عدالة - من لم يسع إليها قط؛ لتكون الخطوة الأولى من جانب الأزهر، وأننا موقن أنه إذا مد يده للشيعة فإن أكثر عوامل الواقعية سوف تذوب من تلقاء نفسها كما تذوب كتل الجليد تحت أشعة الشمس".³²

وفي معرض دفاع واستمساك الشيخ الغزالي بهذا الإطار الجامع نراه يقتطف هذه الكلمات من الشيخ محمد تقى القمي - وهو أحد رموز التقارب المذهبى، وقد زار القاهرة في منتصف هذا القرن الميلادى وتعاون مع بعض العلماء والفقهاء على مبدأ التقارب، منهم حسن البنا ومحمود شلتوت والشيخ الغزالي - "لو أن التعارف بين المسلمين تم على أساس توحيد الثقافة بما في ذلك تيسير التبادل الثقافي وتأليف كتب عن كل طائفة لإعطاء

³¹ المصدر السابق، ص 159-160.

³² محمد الغزالي، ظلام من الغرب (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، 1986م)، ص 252. وللوقوف على آراء الشيخ الغزالي في هذا الموضوع ينظر مؤلفاته الآتية: كيف نفهم الإسلام، فصل "وحدة الجماعة الإسلامية"، ودستور الوحدة الثقافية، فصل "المذاهب الفقهية وسلطات الدولة"، وفصل "الخلافات الفقهية الموروثة قيمتها وأثرها"، وظلام من الغرب، فصل "النحو ووحدة إسلامية كبرى"، ودفاع عن العقيدة والشريعة، فصل "الفرق"، وفصل "حول الوحدة الإسلامية"، ومستقبل الإسلام خارج أرضه، فصل "خطوات نحو توثيق الأخاء وتصحيح الاتماء"، إلخ.

صورة صحيحة عنها وتعليم اللغات الإسلامية في الجامعات وترجمة الآثار والرجال لعرف المسلمين أنفسهم وعلموا قوتهم ومقدرتهم وأنهم مسلمون قبل كل شيء، مسلمون في كتاباتهم وتآليفهم، مسلمون في قصصهم وأشعارهم.. لا بد أن يتلقى المسلمون بعضهم بالبعض الآخر، وهل ينكر أحد أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة البعيدة عن كل تعصب أعمى؟ (...) وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين وتراث العلماء كلهم من أي مذهب من المذاهب الإسلامية، فقد استمدوا علومهم من الكتاب والسنة ومن اللغة العربية التي هي لغة الدين، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة، فإن أقل تبادل ثقافي يكفي لأن تختزن كل طائفة ما عند الأخرى".³³

ويمكّنا هنا تسجيل أنه من العسير جدًا فصل تفكير الشيخ الغزالي في قضايا التقريب المذهبية ومحاولة بلوحة رؤية منهجة لتوحيد المسلمين عن تأثيره الواضح في ذلك بفكر الإمام حسن البناء، فهو يذكر في مقدمة كتابه دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين أن صاحب موضوع هذا الكتاب وملهمه هو مجده القرن الرابع عشر الهجري الإمام حسن البناء،³⁴ ومن ثمة فإننا نراه يقتبس من الأصول العشرين لهذا الإمام المجدد ما يخدم هذه الغاية العظمى، ومن ذلك قوله في الأصل السادس : "كل أحد يُؤخذ من كلامه ويترك إلا المقصوم بكلمة، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله وسنة رسوله بكلمة أولى بالاتباع، ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا"، وقوله في الأصل الثامن: "الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً في التفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي التزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم أو التعصب".³⁵

ويصل الشيخ الغزالي في تخليله إلى ثرة جوهريّة وهي أن التسوع في الرأي والخلاف المذهبية إنما شرفه الأوحد في انتماهه إلى الله ورسوله، فإذا حدث أن وُهِت هذه الصلة

³³ محمد الغزالي، ظلام من الغرب، مرجع سابق، ص 273.

³⁴ محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مرجع سابق، ص 7.

³⁵ المصدر نفسه، ص 160-161. ولزيادة التوسع في ذلك تراجع رسالة التعاليم، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البناء (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، د. ت)، ص 353-370.

الكريمة، وأصبح الاستمداد والاهتداء بغير الكتاب والسنة، فإن حصيلة ذلك لا تدعو كونها سواداً في بياض، بل ستكون وقتيلاً لورق النقد الذي لا رصيد له،³⁶ أي أنه لا قيمة لرأي أو نظرٍ - برأي الشيخ الغزالي - إذا كان لا يستمد في منطلقاته العامة من مرجعية وحدة التصور والتلقي عند المسلمين وهو النبع الخالد المعصوم.

5- مراجعة تراث الأمة الفكرى: يلح الشيخ الغزالي في الكثير من مواطن كتاباته الثرة على ضرورة صياغة فكر إسلامي نبدي توكل إليه مهمة مراجعة تراث العقل المسلم الفكري والمعرفي، على أساس تقييته نهائياً من الإسرائيليات والنصرانيات والخرافات والشوائب التي تم وضعها في أحشائه خلال بعض المراحل والأعصار بهدف تشتيت هذه الأمة من الداخل وتمزيق وحدتها وإغراقها في بحر مظلم متلاطم الموج من الوهن والخيبة والتخلف، حيث يقول: "لا أزال ألح على مراجعة تفكيرنا الديني وأساليب حكمنا على الأشياء والأشخاص. لقد سقطت الخلافة العثمانية.. وانفرط عقد الأمة الكبيرة على الصعيد العالمي وكانت خسائر (الرجل المريض) قد تلاحت قبل وفاته ثم تقاسم الأقوياء تركته، وأمست الأمة الإسلامية بلا أبوة روحية ولا ثقافية ولا سياسية، فهل وقت الأمة اليتيمة وفقة تأمل واعتبار فيما أصابها؟ وهل تسائل العقلاء عن أسرار نكبتها؟ كم كتاباً ألف في تشريح العوج السياسي والقصور العلمي والانهيار اللغوي الذي عرا هذه الأمة؟ كم كتاباً ألف في طبيعة التركيب الجنسي والاختلافات العرقية التي كانت تكون الدولة الغاربة؟ كم كتاباً ألفاً في تطور العلاقات الدولية مع جمود الفقه عندنا، أو في تطور النهضات الإنسانية مع عكوفنا على الصور والأشكال الجوفاء؟ بم شغلنا؟ وبماذا نشتغل الآن؟ إن مراجعة تفكيرنا الديني ضرورة ماسة، ولا أعني بتاتاً رجوعاً عن أصل قائم أو فرع ثابت لهذا والعياذ بالله ارتداد مقبوح.. هناك فرق بين الرجوع والمراجعة، إنني أعني بالمراجعة، الحساب العقلي الشديد على مواقفنا من أنفسنا وديننا وماذا فعلنا ماذا تركنا وماذا قدمنا وماذا أخربنا؟ .. وكل محاولة للنهوض - دون هذه المراجعة الواجبة - قد تكون تكراراً للمساة، وهذه المراجعة سهلة مادمنا ننطلق من قواعد معصومة أساسها الكتاب والسنة، على أنه لا بدّ من إبعاد العقول الملتائمة عن علم الكتاب والسنة، ولا بدّ من تنقية

³⁶ المصدر نفسه، ص 145.

منابعاً الثقافية حتى تروّج أقوال الأئمة والعباقرة وأهل الفكر، وتستخفى أقوال المعلولين وأذناب السلطات وأشباه العوام".³⁷

إن عملية المراجعة المطلوبة كما يفهم من تفكير الشيخ الغزالي لا تعني مجرد القيام بجهد علمي يستهدف غربلة تراث هذه الأمة من الأوضار والشوائب التي تسربت للكثير من مظانه أثناء بعض مراحل الغفلة والانحطاط، أو خلال منعطفات استقالة العقل المسلم عن الإسهام المبدع والحركة الخلاقية، وإنما تعني إلى جانب ذلك كيفية وأسلوب إيجاد منهج يحسن استغلال توظيف الخصائص الحية الفاعلة في هذا التراث باتجاه توحيد الأمة والتمكن الصحيح من وضع محمل قواها وطاقاتها - بعيداً عن أي استنزاف داخلي قد تبعث دواعيه وتتقوى أسبابه جراء الاستغال بالخلافات الموروثة وسفاسف الأمور - في بؤرة خدمة إقلاعها الحضاري واستنهاضها الحقيقي النابع من خصوصياتها الذاتية، والمواكب في الوقت نفسه لشروط المرحلة ومتطلبات العصر ومتضيّفات التغيير الإنساني والرمانوي والمكاني؛ وينظر لي في غمرة هذا التحليل "أن الأمر كله اليوم متوقف على مدى فعالية ما يبذل من جهد في هذا الاتجاه، وكذلك على مدى الإحساس الثقافي والفصي" بخطورة التفتت والتجزئة.. أما العالم الإسلامي بوصفه جموعاً واحداً فلا بد أن يدرك أنه إن لم يتنهج طريق الوحدة والتکلّف فإنه سيستمر في التاكل والتفتت"³⁸ فإذا تم الربط على هنا النحو بين مشروع مراجعة المتوج الفكري والثقافي وبين مطمح وهدف رص صفوف الأمة وتجمّع أجنحتها حول كيانها العتيق، فإن تقديرنا واحتفاعنا بهذه المراجعة - لا ريب - سيتضاعف، ولعل إدراك الشيخ الغزالي لأبعاد هذه المعادلة وأثرها في رهانات نهضة أمتنا وإمكانات تخطيّها عقایل ومشكلات واقعها المعاصر، جعله يستصرخ الهمم وأولي الغيرة والمقدرة والبصيرة من أجل تأسيس "جهاز" فكري للمسلمين يحسب أرباح الأمة وخسائرها مع سير القرون واطراد الزمان، ويشخص العلل، ويقوم برصد التجارب ومواطن النجاح والتألق في كل مكان، سعياً لعلاج الخلل الداخلي وسدّاً للثغرات الطارئة³⁹ بل جعله يعتقد في جزم بأن العالم الإسلامي الآن "أشبه ما يكون بشخص

³⁷ محمد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق، ص217-218.

³⁸ إبراهيم نويري، "حواطر في الوحدة الإسلامية"، مجلة الحرمون الوطني السعودية، العدد 132، صفر 1414هـ / أغسطس 1993م، ص30.

³⁹ محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب (المجاز: مكتبة رحاب، 1408هـ/1988م، ص8).

أصيب بفقدان الذاكرة، فهو لا يدرى شيئاً عن ماضيه الرائع.. إن هناك مئات الكتب في التفسير والحديث والفقه والأدب والتاريخ مخلوطة بسموم ناقعة وخرافات سمحجة، تتدالوها ألوف الأيدي ويقرؤها من يعي ومن لا يعي... أما كان هناك "جهاز" غيور حصيف يتبع هذه الأباطيل بالمحو، فإن لم يستطع إزالتها من مواضعها وضع ألف علامة حمراء للتحذير منها والتنبيه إلى دخلها وفسادها؟ لقد كثرت هذه الكتب السفيهية الزائفة حتى غلبت الثقافة الدينية الصحيحة، فلا عجب إذا وجدنا الأجيال المتأخرة من المسلمين حلال القرون الأخيرة - أعني مئات السنين - يسيرون متعرشين لا تشدhem وجهة ولا تدفعهم قوة، لأن الثقافة التي صنعتهم لا تنتج إلا نفوساً خاملةً وعقولاً شائهة".⁴⁰

إن تتبع أثر الوضع في الثقافة الإسلامية بالإزالة والتعليق والرد وتنقية تراث هذه الثقافة من شتى ضروب الاختلافات، هو في رأي الشيخ الغزالي من المركبات المهمة لخدمة التماسك الرجدانى والعاطفى بين المسلمين، لأن تلك العناصر الغربية والروابط الدخيلة، إنما تم وضعها لغرض تفريق الأمة الإسلامية بتكسير الدعامات الحقيقة لوحدتها وتدمير العقل الإسلامي، فأقرب حلـ - إذاـ - لهذه المشكلة يتضمن في وضع منهجه مضادة لهذه الحركة، مهمتها الأولى رصد كل مواطن ومنفذ اختراق الثقافة الإسلامية ومعالجة كل قضية بالطريقة والأسلوب المناسب لها، إما بالإزالة وإما بالرد المباشر وإما بالتعليق وإما بالتحذير منها .. إلخ.

غير أن الشيخ الغزالي وإن كان يشدد على هذا الأمر فهو يعتقد بضرورة المراجعة الشاملة، وهو ما يقتضي القراءة النقدية الواقعية لماضي هذه الأمة، إذ لا بدّ - برأيه - "من نقد عليم بريء للطريقة التي سار بها العالم الإسلامي من قرون خلت في المعترك العالمي ومحاكمة لهذه الطريقة من الناحتين العلمية والعملية دون تهيب للساسة أو للعوام. فإن الحق أكبر من هؤلاء وأولئك ووجه الله أبقى على كل حال... لقد مرت بالإسلام أربعة عشر قرناً حافلة بالشدة والرخاء والانتصارات والهزائم، وهو الآن بعد هذا التاريخ الطويل يواجه أياماً حاسمة، فإما اجتازها ومضى مسدداً خطوط نبيل المقصود، يهب للدنيا رشدتها وخيرها، وإما انتكس به أهله وخانوا أمانته، فكانت الأخرى لا قدر الله، وفي مثل هذه الأيام العصيبة نهيب مرة ثالثة بأولي الألباب أن

⁴⁰ المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

يهموا بدور الثقافة في إبراء الأكمه والأبرص".⁴¹

ومن جهة أخرى فإن عملية إحضان تراث هذه الأمة الفكري للقراءة النقدية الفاحصة وتنقية مظانها ومصادرها الكبرى من الزوائد والأوضار الدخيلة ينبغي أن يتصدى لها متخصصون مخلصون في الاتماء الحضاري لهذه الأمة وهوية فكرها وثقافتها.

ويُعدّ الشيخ الغزالي من أوائل المفكرين الإسلاميين في هذا القرن الذين تناذوا بهذه الدعوة في نطاق الحركة الشاملة للإحياء الثقافي، وجعل الوحدة بين المسلمين من الأهداف الرئيسة الثابتة لمسار الثقافة الإسلامية في أي مرحلة من مراحل حركتنا الزمنية، ويظهر أن هذه الدعوة باتت مطلباً ملحّاً في نتاج العقل الإسلاميّ المعاصر الثقافي والمعرفي واهتماماته ذات الأولوية البالغة، وإذا كان التراث هو أحد أهم جوانب هذه الحركة، فإن البعض يؤكّد بأن عملية تيسيره وتقريره للأجيال المعاصرة ليست سهلة – خاصة في هذه المرحلة – "فإن احتمال التحرير المعتمد للقيم التراثية يُعدّ من أبرز الأخطار التي اقتربت بما تم في هذا المجال، بسبب الغزو الثقافي الذي تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية، والذي أدى إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا ترتكز إطلاقاً على جذورنا الثقافية. إن التيسير المطلوب والتقطيعة المقصودة تحتاج إلى أفلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية، وتقرّ بجدوى تجديد روح الأمة وقيمها بالارتباك على جذورها الحضارية والثقافية، ومن دون ذلك لن يكون التيسير إلا تشويباً منظماً وتخريباً مقصوداً، ولن يتم في تعزيز الوحدة الثقافية للأمة بل سيزيد في الفصام ويفوي التشتت والإحساس بالضياع وفقدان الهوية".⁴²

٦ - صياغة منهج معرفي جديد لفهم التاريخ الإسلامي والاعتبار بأحداثه: من الثابت أن مؤرّخي المسلمين قد رکزوا على تدون التاريخ السياسي على حساب تاريخ العلم والفكر والمجتمع الإسلامي، فكان لا بدّ أن تكون الثقافة التاريخية السائدة بين الأجيال الإسلامية المختلفة عامل افتراق وتشتت وإيغار للصدر والنفوس، بدلًا من أن تكون ركيزة وحدة ومناصرة وتأييد، وذلك بسبب ما ساد هذا الجانب من تاريخنا من هنات

⁴¹ المرجع نفسه، ص 9-10.

⁴² أكرم ضياء الدين العمري، *تراث المعاصرة*، سلسلة كتاب الأمة، رقم 10 (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ط 1، 1405هـ/1985م)، ص 36-37.

وانحرافات وأخطاء غريبة تماماً عن طبيعة الإسلام؛ من هنا رأينا الشيخ الغزالي في الكثير من مواطن كتاباته يدعو لإيجاد منهاج معرفي إسلامي جديد يجعل من خلفية الثقافة التاريخية لمنحنيات وقائع التاريخ الإسلامي وفصول أحدهاته ومنعطفاته المختلفة، سندًا ثقافياً ومعرفياً يسهم مع غيره من المرتكزات والدعامات في خدمة وتنمية النسيج العاطفي والثقافي المشترك بين جميع أبناء الولاء والاتمام الإسلامي؛ لذلك فهو يؤمن بأن "كل معنى بتحديد الإسلام.. لا بد أن يديم النظر في ماضيه الطويل وهو يمتد مع الزمان والمكان. لقد بدأت هذه الرسالة مسيرها منذ أربعة عشر قرناً، وجعل مدها العريض يشتمل أقطاراً في حاء وأجناساً مختلفة... وتنقل بها الليل والنهر، فالأسلاف يولون والأخلاف يعقبونهم في الإيمان بها والدفاع عنها (...). هذا التاريخ الطويل كيف يُنسى؟ وعيره الغائرة الدفينه كيف لا تستخرج وتدرس ويكتنف بها؟ إن الرجل الذي لا يعي تجاريته الخاصة، ويتعلم منها كيف يتجنب المزالق ويتنقى بالخصوص، رجل قصير النظر ضعيف الإيمان... والأمة الإسلامية التي سلخت من عمرها المديد هذه القرون وخرجت بشروء هائلة من الأحداث الجسام والوقيعات العظام، يجب أن تضع أمام عينيها الدروس التي تلقتها خلال هذه الآماد، حتى لا تقع في ذات الحفر التي وقعت فيها من قبل أو تلدغ من الجحر القديم نفسه".⁴³

إن طبيعة السيرورة التاريخية لحركة المبادرة والفعل في التاريخ الإسلامي وانعكاساتها العميقه من جهة تأثيرها في محددات الولاء للإسلام والإخلاص لمرجعيته الحضارية، هي التي أملت هذه الرؤية على الشيخ الغزالي، وهو مفكر شغوف بقراءة التاريخ الإسلامي، لكنها قراءة متأنية نافذة، قراءة ومراجعة راصدة واعتبار هادف بان، لذلك فتحن بمحده في حضم دعوه لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي، قد لاحظ أن الطريقة السردية غير المنضبطة ببرؤية منهجية واضحة إزاء عملية البناء الاجتماعي الإسلامي ومسؤولية الوفاء بواجبات الاستخلاف والشهاد الحضاري، وهي الطريقة التي دون بها هذا التاريخ، لا تخدم الأهداف التربوية والسياسية للشخصية الإسلامية، لأن السرد في هذه الطريقة غير معني سوى بتدوين اللحظة الآتية من الفعل التاريخي دون أي اعتبار بالعوامل وال الواقع المستخلفية التي أفتحت ذلك الفعل، وبالتالي دون اهتمام أو تقدير للتاثيرات السلبية بوصفها توقعات مستقبلية، فإن العديد من الواقع التاريخية قد لا يكون لها تأثيرات سلبية في اللحظة الراهنة،

⁴³ محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي (الجزائر: مكتبة رحاب، د. ت)، ص 146-147.

أو يكون لها تأثيرات محدودة الضرار في منعطف ما.. قد تكون لها تأثيرات حاسمة أو قاتلة في مرحلة أخرى؟ كما لفت انتباه الشيخ الغزالى نقص التاريخ الإسلامي من حيث الكم، فإن التاريخ المدون والذى يدرس جله أو معظمها عن منطقة الشرق الأوسط، والمسلمون يشكلون خمس العالم تقريباً، فالمعروف أن شعوباً وأجناساً كثيرة قد أسلمت إلى جانب العرب كالفرس والترك والأكراد والهنود والزنوج وأجيال من الصين والمغول وإندونيسيا وماليزيا وجماعات غفيرة وأقليات أخرى في القارات الخمس، فأين التاريخ الإسلامي لهذه الشعوب والأقليات؟! ومن أين يمكن للدارس الوقوف على معرفة أسباب وظروف اعتناق هؤلاء للإسلام إلى جانب إحصاء الخدمات المختلفة التي قدمتها هذه الأجناس للحضارة الإسلامية؟ من هذه المنطلقات ونحوها يقتضي الشيخ الغزالى بمشروعية البواعث التي تختتم إعادة تدوين التاريخ الإسلامي من البدايات وإلى غاية القرن الخامس عشر الهجري؛ بيد أن هذا الخلل العلمي والمنهجي في منظور الشيخ الغزالى وإن كان متولداً عن أسباب داخلية أساساً، فالعالم الخارجي أيضاً له حضوره، فإن الغارة على العالم الإسلامي ومجاهات الغزو الفكري والثقافي المتلاحقة أسهمت في عدم تحقيق هذا الجهد والاتجاه بمنحاه صوب الغايات المنشودة والتطلعات المأمولة.⁴⁴

والذى نلاحظه هنا أن تحليل الشيخ الغزالى الذى يقترب من حيث الاهتمام بدراسة بواعث الفعل التاريخي من منهج فلسفة التاريخ، له ما يدعمه من الواقع التاريخي والحضارى للأمة الإسلامية، ودونما حاجة للالتجاء لأى إسقاطات أو معاير خارج هذا النمط الحضاري فإن "الأمة الإسلامية لم يتكون تاريخها بعد أن صارت أمة تحمل صفة الإسلامية إلا بمحاجيء الإسلام وانتظامه لشعوبها ضمن إطاره العقidiي والحضارى، لهذا فإن أي تفسير لتأريخها يستبعد الدين بوصفه منهجاً للتفسير أو إطاراً حاوياً لها محکوم عليه بالقصور الفاحش والفشل الذريع"؛⁴⁵ لكن الحاجة القصوى لهذا المنهج عند الشيخ الغزالى لا تبررها أو تدفع إليها مقتضيات الدراسة النظرية فحسب، وإنما الأولى والأهم من ذلك عنده هو كيفية تحقيق الاستفادة العملية من وراء هذا المنهج بتطويع الثقافة التاريخية لخدمة ودعم وتنمية الأواصر والوسائل العاطفية

⁴⁴ محمد الغزالى، *تراثنا الفكرى في ميزان الشرع والعقل*، مرجع سابق، ص 105-106.

⁴⁵ محمد مراح، "الدين وفلسفة التاريخ"، مجلة الحرس الوطنى السعودية، العدد 161، شعبان 1416هـ / يناير 1996م، ص 66-67.

والفكرية المشتركة بين المسلمين، وهكذا يصبح تركيز الشيخ الغزالي له معناه العملي في مجال الدعوة لهذا المنهج وكذلك اهتمامه بمشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي وحملته النقدية اللاذعة على مختلف الانحرافات الفكرية والنفسية والسلوكية وأفعال حركة تاريخ المسلمين وتفسيرها المليء بدلالات رعاية المصلحة الإسلامية، فالمنهج الذي يدعو إليه الشيخ الغزالي في هذا الصعيد ينبغي أن يصل حاضر هذه الأمة بماضيها، وأن يستدبر رسالتها ويرعى خصائصها، وفي مقدمة تلك الخصائص تحقيق مبدأ الوحدة الثقافية والعاطفية وما يتفرع عنه من قيم المناصرة والإخوة والولاء.⁴⁶

ثالثاً ملاحظات واستنتاجات:

إن ما يمكن ملاحظته أو استنتاجه من التحليل والتشخيص والمتابعة لعناصر مرتکرات الوحدة الثقافية بين المسلمين في فكر الشيخ الغزالي ما يأتي:

- 1 - أن الشيخ الغزالي يجعل من المركبات الثقافية للأمة الإسلامية قاعدة خلفية تضمن استمرار تمسك البنى الجوهرية للكيان الإسلامي، ودليل ذلك عنده أن المجتمع الإسلامي ظل صامداً مؤدياً رسالته إبان المنعطفات الحرجة والعصبية التي تهاوت فيها الوحدة السياسية المتمثلة في الخلافة أو بعض الأنظمة السياسية؛ أي أن الجهود العلمية والفكرية والتربوية هي التي حفظت الإسلام وبمحاجاته من المخاطر والمهالك المرصودة.⁴⁷
- 2 - يسعى تفكير الشيخ الغزالي إلى تجاوز عقبة "الشعارات" إزاء المقومات الثقافية للأمة، فإن النظر إلى هذه المقومات من زاوية كونها شعارات لا مكونات لحقيقة موضوعية قائمة، قد أضرّ كثيراً بهذه المسألة الحساسة بما لذلك من انعكاسات سلبية فادحة على مستقبل العلاقات بين المسلمين، ويمكن تصور مدى وحجم المخاطر المتوقعة من درجة الاهتمام بهذه المقومات من بؤرة الشعور الإسلامي إلى حاشية هذا الشعور أو إلى خارجه.
- 3 - على العرب واجب تفهم ظروف إخوانهم في العقيدة والهوية الفكرية والحضارية المشتركة، وهذا يقتضي منهم الاجتهد في فهم وتعلم لغاتهم الأصلية ومحاولة وضع برامج علمية لتعليمهم اللغة العربية. فتلك هي السبيل لمتابعة همومهم والاستماع إليهم وتفعيل

⁴⁶ محمد الغزالي، هموم داعية (باتنة/الجزائر: دار الشهاب، د. ت)، ص16.

⁴⁷ محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مرجع سابق، ص262.

موقعهم وأدوارهم داخل الكيان الإسلامي.

٤ - إن حديث الشيخ الغزالى عن المرتكزات الثقافية للوحدة بين المسلمين جاء في سياق سئىء، أي أن تخلف المسلمين ما هو إلا جانب من صورة تفريط المسلمين في هذه المرتكزات والمقومات وعدم إحلالها في الواقع العملي مكانها للاتصال بها، لأن هذه المرتكزات هي بمثابة الأعصاب المناسبة داخل الكيان الإسلامي، فهى تظهر ملامح شخصيته المعنوية بقدر ما يجعل أجزاءه متماضكة وجنباته متراصة.

٥ - ينبغي على المسلمين كافة والعلماء والدعاة خاصة الاهتمام الفاعل بخدمة الدعوة الإسلامية وتطوير وسائلها وأدواتها بما في ذلك رعاية الأقليات المسلمة في كل مكان، وعدم التفريط ولو في مسلم واحد، فقد تأكّد أن هذه الدعوة أحد أقوى عوامل الوحدة العاطفية والشعورية بين المسلمين.

٦ - ضرورة العناية المستمرة بالثقافة الذاتية في أي مجتمع إسلامي وتفعيل مكانتها ودورها في عملية الاستنهاض الفكري والاجتماعي، والعمل على التمكن من صياغة منهج إسلامي لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي، وجعل الثقافة التاريخية في خدمة المصالح العليا للأمة وصون مبدأ التناصر والتعاون في التفقّع عليه، والتسامح أو العذر والتجاوز بالنسبة لما هو موطن اختلاف.

٧ - إن ما يفهم من الجهود العلمية والفكيرية التي قدمها الشيخ الغزالى في هذا المجال، أنه يدعو إلى الالتزام بتقيني المرتكزات الثقافية للأمة، ودعمها بضمانت مشتركة ثابتة من خلال ميثاق شرف يتعهد الجميع بإنفاذها بمحاسن وإخلاص.

٨ - يؤمّن الشيخ الغزالى بأن الفقه الإسلامي شروة عقلية وشرعية ليس لها نظير في الإبداعات العقلية والتنظيمية للحضارات الأخرى، وأن من واجب كل المسلمين توقيير واحترام هؤلاء الفقهاء المبدعين، غير أن التقليد والجمود على مذهب واحد لا يخدم الوحدة الثقافية للمسلمين، والأصوب هو الاستفادة من هذه الشروة الاجتهادية البدعة وتطويع ثراثها لمواجهة التحديات وحل مشكلات العصر.⁴⁸

⁴⁸ يرى الشيخ الغزالى أن المتاجرة بالخلاف خيانة عظمى لما في ذلك من مخاطر على وحدة المسلمين. انظر مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مرجع سابق، ص 118-141.

٩ - ضرورة تقييد الفكر الإسلامي المعاصر بمرجعية التصور والتلقي الجماعي عليهما بين المسلمين، مع إيجاد منهج للاعتماد بالواقع والتجارب الإنسانية عن طريق التبني والاستنباط والاستلهام في ضوء هذه المرجعية وإبداع منهاجية عملية تضع هذه الحصائر والنتائج في خدمة المقومات الثقافية للأمة المحددة لقسمات شخصيتها الفكرية وهويتها الحضارية.

١٠ - إن فكر الشيخ الغزالي فكر تجمعي وحدوي فاعل، ولا شك أن ذلك من نصحُ القرآن الكريم في روحه وعقله وحسه، فالتوحيد الخالص الرائق هو عمق شخصيته، مما جعل تفكيره ترجمة متماهية مع هذه العمق، فضلاً عن فقهه المتميز لمفاصد الإسلام واستفادته من رموز الاجتهد والإصلاح الحداثيين والمعاصرين كالشيخ محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وحسن البنا، وعبد الله دراز، ومحمد المدنى، ومحمد تقى القمى، ومحمد أبو زهرة.. وغيرهم من الأعلام والجددين الذين خدموا الإسلام وأمته وحضارته، وتركوا بصماتهم على صفحات تراثه العلمي والفكري والثقافي والمعرفي والإنساني.

* النصح: هو الأثر، وأصله لغة من الرشّ. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "نصح".